الوقت فرصتنا العظيمة

الأرشمندريت بطرس، رئيس دير القديس يوحنا المعمدان، اسكس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

الوقتُ أمرٌ مأساوي في حياةِ الإنسانِ، لأن كل عامٍ جديدٍ يقيس مدى اقتراب حياته من نهايتها. هل الوقتُ، في نهاية المطافِ، صديقٌ أم عدو؟ بركةٌ أم لعنة؟ إن الطريقة التي نقيس بها الوقتَ ضرورية، ولكنها أيضاً نسبية واصطناعية. ومع ذلك، فإن بداية كل عامٍ هي فرصةٌ لنا لنقدم حساباً عن حياتنا الروحية ونضعَ بداية جديدة. منذ بدء الخلق، يتحدث الكتاب المقدس عن الوقت: "ودعا الله النورَ نهاراً والظلمةَ ليلاً. وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً واحداً" (تكوين ١:٥). بالتأكيدِ، لم يُخلقِ الإنسانُ ليكون سجينَ الزمن بل خُلِق للأبدية. خُلِقتِ الملائكة في الأبدية، لذلك فإن سَقْطة لوسيفورُس لا رجعة عنها. بالنسبةِ للإنسانِ، يبرهنُ الوقت على محبة الله لأنه، بعنايته الصالحة، قد صنعَ الإنسانَ ضمن الزمان والمكان لكي يستفيد الأخيرُ من "قابلية الوقت للتغيّر" التي تحدث عنها الفلاسفة، وليمتلك إمكانية التوبة. يستحيل أن نسيطر على اللحظة الحالية لأنه ما إنْ ندعوها "حاضرة" حتى تكون قد أصبحت بالفعلِ من الماضي. ومع ذلك، فإن تقلّب الزمن هو بركةٌ للإنسان، إذْ يمنحُه فرصةَ التغيّرِ في الخير وبناءِ حالةٍ روحيةٍ بداخله. يحثنا القديس بولس الرسول على افتداء وقت حياتنا لأن الأيام شريرة (راجع أفسس ١٦:٥).

يكتسب زمان حياتنا قيمةً ومعنىً لا بعدد السنوات، بل بمقياس استفادتنا منه بالعمق. إذا لاحظتم، تقول القراءات المخصصة لأعيادِ الآباء القديسين بأن الشيخوخة المكرمة تعتمد على عَيش الإنسانِ حياةً مستقيمةً ونقية: "قد بلغ الكمالَ في أيام قليلة؛ فكان مستوفياً سنين كثيرة" (حكمة ١٣:٤) هذا يعني بأن حياتهم قد بلغت مِلأها. غالباً ما نسمع الناس يقولون "كم أضعت من الوقت في حياتي". من المؤسف أننا ترعرعنا مع أنماطِ هذا العالم ولسنا نعرف كيف نستفيد جيداً من هذه العطية العظيمة في حياتنا، والتي تُدعى الوقت. في ظلمةِ الجهل، يتعامل الناس مع الوقتِ بالعودة بحنينٍ إلى الماضي الذي لم يعد يخصّهم. وفي أحيانٍ أخرى، يقودهم العدو إلى اليأس بتذكيرهم بكل إخفاقات الماضي. يَنقُل أناسٌ آخرون أذهانهم إلى المستقبل عبر المخيّلة. إنه لأمر مأساويٌ أن يميل الإنسان لملاحظة علاماتِ الزمنِ على الآخرين بأكثر يسرٍ مما يُلاحظ ذلك على نفسه. يريدُ الهرب باستمرارٍ من فسادِ الزمن وأن يكون خالداً على الأرض. ومع ذلك، فإن الوقت والموت وُجِدا كعملِ محبةٍ مُطلقة من الله تجاه الإنسان، لئلا يصبح الإنسانُ خالداً مع الشر.

إن أعظم حدثٍ تحت السماء هو اللحظة التي أصبح فيها الله نفسُه إنساناً. وعندها، دخلت أبديةُ اللهِ الزمنَ متقاطعةً مع المسار الأفقي للزمن التاريخي. يُدعى الرب "المسيح"، أي "الممسوح" من الله، وهو نفسُه يمسح الزمن وكل الخليقة بقوته الإلهية. بلغَ الزمنُ في العهد القديم مِلأه حين حصلت كل الأشياء التي أراد الله حدوثها. يطابق الآباء القديسون "ملء الزمان" بالعذراء القديسة. وبالمثل، بالنسبة لنا، فإننا إلى جانب افتداء الوقت نحتاج أيضاً إلى ملء الحياة. إن الوسيلة التي علينا استخدامها لتبلُغ حياتنا ملأها وتفتدي الأبدية هي الوقت نفسُه. يقول القديس باسيليوس الكبير بأن الزمن هو فترةٌ تتكشّف مع خلق العالم، فترةٌ لها بدايةٌ ونهاية، بدأتْ مع خلقِ العالم وتستمر بالتوازي مع تقدّم العالم. يقول القديس صفروني بأن الزمن هو مكان لِقائنا بالله. إنه الوقت الذي يخلق فيه الله آلهةً. يُستخدم المصطلح Kairos ليتورجياً حين نقول بأن الكهنة يأخذون الكيرون، أي أنهم يستعدون بخدمةٍ (صلاةٍ) صغيرةٍ قبل دخول الهيكل للاحتفال بالقداس الإلهي (كلمة καιρός هنا تأتي من اليونانية القديمة وهي تعني حرفياً اللحظة المناسبة - المترجم). وبنفس الطريقة، فإن زمان حياتنا هو وقت نُعِدّ خلاله أنفسنا للحياة الآتية. يقول القديس نيقولاوس كاباسيلاس بأن الحياة في المسيح تُبذَر في هذا العالم ولكنها تؤتي ثمارها بملئها في الحياة الأخرى. أحدُ الأسباب التي تجعلنا، حتى نحن المسيحيين، نضيع وقتنا هو أنه ليس لدينا موقف طاعةٍ تجاه آبائنا الروحيين ولا تجاه تقليد الكنيسة. كل من لا يعرف سر الطاعة يُضيّع وقت حياته، مع أنه من الناحية الإنسانية قد يحقق إنجازاتٍ عظيمةً ومشرقة. لن يجمعَ خارجَ الطاعة إلا القليل من الفُتات من المائدة الغنية لتقليد آبائنا. يُقال في كتاب السلم إلى الله أن ثلاثة شبانٍ ذهبوا لرؤية شيخ ليطلبوا كلمة منفعة. قال القديس لثالثهم: "تذكّر أنه بصبرنا نقتني نفوسنا. جِد لك شيخاً صارماً وكن طائعاً له في كل شيء"، فسأله الشاب: "وإنْ كان الشيخ لا يحيا حياةً روحية، فهل عليَّ البقاء؟" فأجابه القديس: "حتى وإن وجدتَه أسوأ الكل، لا تدِنه، بل قُلْ لنفسك الكلمات التي قالها المسيح ليهوذا: يا صاحب، لماذا أتيت (راجع متى ٢٦:٥٠) أَلِتَدين أم لِتُدان؟ اصبر وعندها سترى أن نعمة الله ستُطفئ في داخلك كل كبرياءٍ وكل شهوةٍ جسديةٍ أخرى". نرى أن من يستسلم للطاعة ببساطةٍ لا يلاحظ حتى التجارب التي يمكن أن تسحق الآخرين. ينطبق هذا على كل المؤمنين وليس على الرهبان فقط. لو أن لدينا طاعةً حقيقية لمؤسسات الكنيسة لمنحَنا اللهُ أن نصير أيضاً حَملةً لتقليدها.

إننا، بعد المسيحِ، نحيا في سنةِ الرب (راجع لوقا ٤:١٧). كثيراً ما نقول في الخِدَم: "تبارك مُلكُك، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين" (أي مُلك الله وذلك في عدد من الإعلانات التي يقولها الكاهن: المترجم)، هذا يعني بأن هدف زمانِ حياتنا أن نجمع في داخلنا في كل لحظةٍ خَتمَ حضور المسيح لكيما ندخل في أبديّته. بقي المسيح على ما كان عليه، واتّخذَ ما لمْ يكُنْ، أي الطبيعةَ البشرية. تشير

الكنيسة إلى هذه الأمور كلها خلال خدماتِ اليوم. أيُّ ساعةٍ مباركةٌ أكثر من الساعةِ السادسة التي سَمّر فيها المسيح جسده على الصليبِ وصلبَ الخطيئة؟ أو الساعةِ التاسعة حين قال " قد تمّ" لكي يكشف أن مخطط الله من أجل الإنسانِ قد أُنجِز؟ أيُ ساعةٍ أكثر بركةً من الليلة التي ولِد فيها المسيح أو الليلة التي قام فيها من بين الأموات؟ كما قال سليمان الملك: "وَحِينَ شَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ هُدُوءُ السُّكُوتِ، وَانْتَصَفَ مَسِيرُ اللَّيْلِ، هَجَمَتْ كَلِمَتُكَ الْقَدِيرَةُ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ الْعُرُوشِ الْمَلَكِيَّةِ عَلَى أَرْضِ الْخَرَابِ بِمَنْزِلَةِ مُبَارِزٍ عَنِيفٍ، وَسَيْفٍ صَارِمٍ يُمْضِي قَضَاءَكَ الْمَحْتُومَ"، عن إرادته الحقيقية لتخليص الإنسان (راجع حكمة ١٨:١٤-١٦).

أسئلة وأجوبة:

س: كيف ترتبط الذاكرة بالوقت؟

ج: هناك ذاكرةٌ روحية، هي فِعلُ صلاة، وهناك ذاكرة نفسية، هي مجرد ذكرى لأحداثٍ ماضية. عبر التذكّر الروحي، نأتي بالأمور التي نتذكرها أمام الله بصلاةٍ وشكرٍ. نصلّي من أجل الراقدين قائلين: "ذكرهم مؤبد" ، بمعنى أنّ أولئك الذين يَذكُرهم الرب يحيون حقاً، في حين أن نسيان الله هو موتٌ أبدي. وبالمِثل، فإن التذكّر المُفعَم بالصلاةِ هو فعلٌ يُقدّس بلْ ويفدي ماضينا، تماماً كما أن "المسيح قد افتدانا من لعنة الناموس" بدمه الخاص (راجع غلاطية ٣:١٣)، "وليبذُل نفسَه فديةً عن كثيرين" (راجع مرقس ١٠:٤٥). لا سبيل آخر لنا لنفتديَ ونقدسَ الماضي أو الحاضر أو المستقبل إلا بأن نجلبه أمام الله بالصلاة.

س: لماذا يمنح اللهُ البعضَ سنواتٍ قليلةً للعيش، فيما يموتُ آخرون في شيخوخةٍ متقدمة؟

ج: الأمر الوحيد الذي يمكننا قوله هو "فلنودِع ذواتنا وبعضنا بعضاً وكل حياتنا المسيحَ الإله" . المسيحُ ممسكٌ بيديه الأوقات والأزمنة، وعلينا فقط أن نُسلّم أمرنا له ونسعى يومياً بقدر استطاعتنا لنجمع الأبدية داخلنا عبر الصلاة وكلمةِ الله وأسرارِ الكنيسة وتطبيق الوصايا. أحكامهُ لا يُسبَر غورها، والأمر الوحيد المؤكد والمُطلق الذي نعرفه هو أن كلَّ ما يعملُه فهو من تلقاء صلاحه، وأن لديه الأبدية بأكملها ليعوّضَ عن كلِّ ظلمٍ واقعٍ على المستوى التاريخي.

س: يقول القديس يوحنا السلمي بأن زمان حياتنا غير كافٍ لتكون لدينا صداقاتٌ ودموعٌ معاً، وأن علينا أن نختار إما هذا أو ذاك. كيف يمكننا فعلُ ذلك؟

ج: لأكون دقيقاً، يقول (السلمي) كلمةً أصعب: اليومُ الذي لم نذرفْ فيه دموعاً قد ضاع إلى الأبد. بالتأكيد سنحصلُ على فُرَصٍ أخرى للنوح، ولكننا لن نجدَ ذلك اليومَ ذاتَه أبداً، لأنه إذْ حُرِم من ختمِ الله

الذي بالدموعِ فقد بقي غير مَفدي. رغم أن لدينا انطباعاً خاطئاً بأننا سنعيش على الأرضِ إلى الأبدِ، إلا أنَّ وقتنا قصير جداً وغير كافٍ للصداقات والدموع كليهما. هذا لا يعني بأنه يجب ألّا نكون ودودين مع مَن حولنا، بل ألا يتعلق قلبنا بأشخاصِ وأشياءِ هذا العالم. إلهنا إلهٌ غيور، ويريد قلبَنا كلّه. ومع ذلك فهنالك سر: إنْ قدّمْنا قلبَنا بالكلّية للرب، فإن إرادته تصير إرادتنا، ويتّسع قلبنا ليحتضن الآخرين جميعاً بدونِ هوىً، من خلال المسيح وليس من خلالنا. حين نبني صداقاتٍ نحنُ مركزُها، فإن صداقاتٍ كهذه هي "منابِر" لإشباع أهوائنا ومجدنا الباطل. افتدى القديسون لا زمان حياتهم فحسب، بل أزمنة حياة رفاقهم أيضاً.

س: تحثّنا الكنيسة على السكون في أيام الآحاد والأعياد الكبرى. هل هذا كما لو أن الوقت يتوقف إلى حينٍ بالنسبة لنا؟

ج: كما تعلمون، غالباً ما يقول الناس لنا بأن إيقاع الحياة سريع جداً ولا يوجد وقت للصلاة. يمكن لأحدهم أن يُمضيَ ثلاث ساعاتٍ على الإنترنت بدون أن يُدرك مرور الوقت. ولكنْ، إنْ ذهب ذلك الشخص (نفسُه) إلى الكنيسة فإنه يشعر بأن "خدماتِ الكنيسة الأرثوذكسية طويلة جداً". من يُمضي أربع ساعاتٍ على الإنترنت سيجمع في أفضل الأحوال بعض المعرفة التي ليست دقيقةً حتى. ومع ذلك فإنه في أسوأ الأحوال يبقى فارغاً ويجف قلبه. في حين أن من يكرس أربع ساعاتٍ للصلاة يومياً ينال حالة مختلفة تماماً. لا يقول الكتاب المقدس "اركضوا واعلموا أني أنا الله" بل "كونوا ساكنين واعلموا أني أنا الله" (راجع مزمور ٤٦:٩). دعونا لا نخدع أنفسنا ظانين بأنه إذا كنا نشاهد التلفاز ونصلي بالمسبحةِ في الوقتِ نفسه فقد تمّمنا قانون صلاتنا. "كونوا ساكنين" تعني بأن علينا أن نترك كل شيء ونقول "الآن، لخمس دقائق أو نصف ساعة، على قدر استطاعتنا، لا يوجد على هذه الأرض سوى الله وأنا". هكذا ينبغي أن يكون السكون الحقيقي لكيما تتجذر نعمة الصلاة فينا. وإلا فإننا سنكسب بضع حباتٍ من الرمل فقط من الشاطئ بأكمله.

س: ما الذي يعنيه بأن الزمن يصبح "كيروس" في الكنيسة؟

ج: "الكيروس" يعني الوقتَ الذي نخصصه لوقفتنا في حضرة الله، وبركة "الكيروس" هي أنه يحضّرنا ويغيّر حالتنا. حين نخطئ، إذا عشنا الزمن بالتوبة، يصبح بالنسبة لنا "وقتاً يُعمَل فيه للرب"، أي وقتاً يُحال لله. يقول الرسول بأن "كل خليقة الله تتقدس بكلمة الله والصلاة" (راجع ١ تيموثاوس ٤:٤-٥). لذلك فإن زمان حياتنا أيضاً يُصبح "كيروس" حين نجعل منه فرصةً لتزورَنا نعمةُ الله وتُظلّلَنا. في هذه الأيام، يُركّز الشباب خاصةً على الوقتِ بشكلٍ كبير، حتى من خلال المخدرات، وكلما أرادوا عَيش الوقت، كلما انزلق من بين أصابعهم. يجري الإنسان ويطاردُ ظلاً، ولكنْ، لا يُمكن الإمساك بهذا الظل الذي

يُدعى "الوقت". ومع ذلك، حين يُصبح الوقتُ "كيروس"، يقول النبي داوود "صلاتي لك يا رب هي وقت رضى" (راجع مزمور ١٤:٦٨)

س: أمام كل عامٍ جديدٍ نشعر بأننا عالقون في نقطةٍ من الزمن ما بين العامِ الذي مضى والذي يأتي. ألا يحدث ذلك في كل لحظة من الزمن؟

ج: تُجنى الفائدة من "الآن"، مما نقوم به في هذه اللحظة، والعدو، لعلمه بذلك، يأخذ ذهننا من "الآن" ويحاول تحويله إمّا إلى الماضي، مالئاً إيانا باليأس والإحساس بالذنب، أو إلى المستقبل، مالئاً إيانا بالقلق. حتى أننا ندعو هذا القلق "الأخرويات". ومع ذلك، فإن علم الأخرويات الحقيقي هو أن نسعى يومياً لتحقيق اتصالٍ مع آدم الآخير الذي خُلِق آدمُ الأول على صورته. ذاك الذي سيأتي مجدداً في النهاية هو نموذج آدم الأول. إن العيش في حضرة آدم الأخير، بكلمته وفي نعمته، لا يعني العيش في غمٍّ وخوفٍ بخصوص المستقبل.

س: كيف نفهم أن الزمن هو عطية صلاح الله؟

ج: حين تُظلل نعمة الله الوقت، يمكن للإنسان أن يقول أموراً متناقضةً مثل: "هذِهِ الأُمُورُ جَمِيعُهَا أَصَابَتْهُمْ" (راجع١ كورنثوس ١١:١٠)، أو أن يصير معاصراً للأحداث الأبدية. ولكننا نقول في الوقت نفسه: "يا رب ارحم". كلا الأمرين صحيح، لأنه مادام هنالك وقت، حتى عندما نكون ممتلئين من فرح حضوره، يبقى هنالك خطر. تذكرون ذلك الشيخ الذي قال في أيامه الأخيرة قبل موته حين كان أحدٌ ما يمدحُه: "احذر، ما زال لدي وقتٌ لأفسِد كل شيء".

س: هل زمن الليتورجيا هو نفسه زمن الأبدية؟

ج: إن الزمن الليتورجي هو "اليوم الأخير"، الزمن البشري التاريخي المُظلَّل بالقوة الإلهية غير المخلوقة التي تقودنا إلى أبدية الله. يقول القديس صفروني بأن الزمن نسبي، لكنْ ليس بحسب قصد آينشتاين الذي قال بأنه حين تتجاوز الكتلة سرعة معينة فإنه يمكنها أن تتحول إلى طاقة. من الناحية الروحية، يحصل هذا لأرواح القديسين الذين في اندفاعهم نحو الله ينسون العالم وكأنهم يتخلصون من جاذبيته، يصيرون كلهم نوراً، كلهم قوة. حين يعودون إلى العالم يصيرون أبواباً إلى الملكوت، وتعكس حياتهم فضائلَ الله حتى نتمكن نحن من التمثّل بهم، كما يقول القديس بطرس: " لِكَيْ تُخْبِرُوا بِفَضَائِلِ الَّذِي دَعَاكُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ." (راجع ١ بطرس ٩:٢). كما يقول القديس بورفيريوس، لا يوجد عامٌ جديدٌ، يوجد الوقتُ الذي مضى وحسب. ولكنّ الوقت الذي يمنحنا إياه الله هو "الكيروس" (اللحظة المناسبة: المترجم) الذي علينا تحويله إلى فرصة ليدخل الله إلى حياتنا.

Source: Archimandrite Peter, Abbot of Monastery of St John the Baptist, Essex UK. “Time – Our Great Opportunity”. Pemptousia. 10 January 2022. https://pemptousia.com/2022/01/time-our-great-opportunity/